البطولة

البُطُولَة

للشجاعة سِماتٌ قد يتحلىٰ بها قُطَّاع الطُّرق...

- فهل البطولةُ هي الشجاعة ؟!!
- وهل كلُّ شجاعٍ بطل ؟!!

الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا

الطبعة الأولىٰ
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م



الفهرسة في النشر

٨١٨ / ع • ب

عبد الرحمن رأفت الباشا (١٩٢٠ ـ ١٩٨٦م)

البطولة ـ [ليماسول]: دار الأدب الإسلامي، ١٤١٧هـ [١٩٩٦م]

٩٥ص؛ ١٢سم.

رقم الإيداع: ١٩٩٦/٥٣٩١م

الإعداد الفني والجمع التصويري بدار الأدب الإسلامي
المراجعة اللغوية الأستاذ رزق هيبة

دار الأدب الإسلامي

شركة ذات مسئولية محدودة

ليماسول ـ ص.ب: ٣١١٠ قبرص — القاهرة ـ ص.ب ٨١

هاتف: ٣٦٩٣٣٦ - ٥ - ٣٥٧ — بريد بانوراما ١١٨١١ ج.م.ع

فاكس: ٣٦٩٣٣٦ - ٥ - ٣٥٧ — هاتف: ٢٦٦٠١٦٤ - ٢٠٢

كلمة الناشر

نحمد اللّٰه حمداً كثيراً على نعمه أن يسر لنا السبل لخدمة الإسلام ولغة القرآن ، راجين من العلي القدير أن يمدنا بالعون لمتابعة هذا العمل الجليل .

إن كتاب البطولة هذا هو أول كتاب يصدر للمؤلف بعد وفاته ، وسوف نسعى جاهدين بإذن اللّٰه وتوفيقه بإصدار ما تركه المؤلف - رحمه اللّٰه - من تراثه العلمي الذي يتسم بعمق الفكرة ، وسلاسة الأسلوب ، وإيجاز العبارة .

كما سنقوم بإعادة ما قد تم طباعته سابقاً بعد عمل بعض التعديلات الفنية في الإخراج ، وعمل التصحيحات والإضافات التي أشار إليها المؤلف - رحمه اللّٰه - .

ولا يفوتنا أن ننبه القارئ الكريم إلى أننا أصحاب الحق الوحيدين لنشر وطباعة وتوزيع جميع كتب **الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا** بالصورة التي بين يديك .

كما نشكر قارئنا الكريم على اختيار أحد منشوراتنا ونطلب منه العون في إبداء الرأي والإشارة لأي خطأ قد يرد لكي تعم الفائدة ... واللّٰه من وراء القصد .

الناشر

يمـــان عبد الرحمن رأفت الباشا

رضوان عبد الرحمن رأفت الباشا

بسم الله الرحمن الرحيم

تَـمْهِيد

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنُثْنِي عَلَيْهِ الثَّنَاءَ كُلَّهُ . وَنُصَلِّي وَنُسَلِّمُ عَلَىٰ نَبِيِّهِ وَصَفْوَةِ خَلْقِهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ صَانِعِ الْأَبْطَالِ ، وَمُعَلِّمِ الرِّجَالِ .

وَبَعْدُ ... فَمَا هَذَا الَّذِي أَسُوقُهُ لَكُمْ بِمُحَاضَرَةٍ أَوْ بَحْثٍ ...

وَإِنَّمَا هُوَ حَدِيثٌ يَنْبُعُ مِنَ الْقَلْبِ رَجَاءَ أَنْ يَجِدَ طَرِيقَهُ إِلَىٰ الْقُلُوبِ ...

فَفِيهِ مِنَ الْمَشَاعِرِ وَالْعَوَاطِفِ ، الَّتِي تَلِيقُ

بِالْأَسْمَارِ أَكْثَرَ مِمَّا فِيهِ مِنَ الدَّرْسِ وَالْبَحْثِ الَّذِي تَتَّسِمُ بِهِ الْمُحَاضَرَاتُ ...

* * *

وَرُبَّ قَائِلٍ يَقُولُ :

أَفِي مَصْنَعٍ مِنْ مَصَانِعِ الْأَبْطَالِ ، وَمَنْبِتٍ مِنْ مَنَابِتِ الرِّجَالِ ، جِئْتَ تَسُوقُ الْحَدِيثَ عَنِ الْبُطُولَةِ ؟!

أَفَلَا تَخْشَىٰ أَنْ تَكُونَ فِي صَنِيعِكَ هَذَا كَمُهْدِي الْمَاءِ إِلَىٰ الْبَحْرِ ، أَوْ نَاقِلِ التَّمْرِ إِلَىٰ هَجَرَ[1] ؟

وَنَحْنُ نُبَادِرُ فَنَقُولُ :

إِنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الْبُطُولَةِ وَالْأَبْطَالِ شَهِيٌّ إِلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ ، حَبِيبٌ إِلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ ...

(١) هجر : بلد عَلَى الخليج العربي مشهورة بإنتاج التمر .

يَسْتَوِي فِي الشَّوْقِ إِلَيْهِ الْكِبَارُ وَالصِّغَارُ، وَالنِّسَاءُ وَالرِّجَالُ ...

لَا تَمَلُّ الْأَسْمَاعُ رِوَايَتَهُ وَلَا يُخْلِقُ[1] التِّكْرَارُ جِدَّتَهُ.

فَفِي ذَاتِ كُلٍّ مِنَّا بَطَلٌ مُسْتَكِنٌّ فِي ضَمِيرِهِ.

فَهُوَ إِمَّا أَنْ يُحَقِّقَهُ فِي وَاقِعِ حَيَاتِهِ ...

وَإِمَّا أَنْ يَصْنَعَهُ بِخَيَالِهِ وَأَشْوَاقِهِ.

وَمَا يُقَالُ فِي هَذَا الصَّدَدِ عَنِ الْأَفْرَادِ، يُقَالُ عَنِ الشُّعُوبِ أَيْضاً ...

فَهِيَ مَا تَزَالُ تَبْحَثُ فِي حَيَاتِهَا عَنِ الْبَطَلِ فِي كُلِّ مَجَالٍ ...

فَإِنْ لَمْ تَجِدْهُ فِي الْحَقِيقَةِ؛ اخْتَرَعَتْهُ مِنْ خَيَالِهَا اخْتِرَاعاً ...

(١) يخلقه التكرار: يجعله بالياً قديماً.

ثُمَّ أَلْصَقَتْ بِهِ مِنْ رَوَائِعِ الْبُطُولَاتِ مَا لَا يُصَدِّقُهُ عَقْلٌ وَلَا يُقِرُّهُ مَنْطِقٌ .

حَتَّىٰ إِذَا غَدَا هَذَا الَّذِي أَلْصَقَتْهُ بِأَبْطَالِهَا عَلَىٰ مَرِّ الْأَيَّامِ فِي نَظَرِهَا حَقِيقَةً لَا تَقْبَلُ الْجَدَلَ ... أَلَّهَتِ الْبَطَلَ وَعَبَدَتْهُ كَمَا فَعَلَ « الْيُونَانُ » وَ« الرُّومَانُ » بِأَبْطَالِهِمْ .

* * *

الْبُطُولَةُ عِنْدَ الْـمُسْلِمِينَ

لَكِنَّنَا - نَحْنُ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ - لَسْنَا بِحَاجَةٍ لِأَنْ نَخْتَرِعَ الْأَبْطَالَ لِأَنْفُسِنَا اخْتِرَاعاً...

وَلَا أَنْ نَبْتَدِعَ(1) لَهُمُ الْبُطُولَاتِ مِنْ عِنْدِنَا ابْتِدَاعاً.

فَتَارِيخُنَا - كَمَا يَشْهَدُ الْمُؤَرِّخُونَ - مِنْ أَحْفَلِ تَوَارِيخِ الْأُمَمِ بِالْبُطُولَاتِ وَأَغْنَاهَا بِالْأَبْطَالِ.

وَهِيَ بُطُولَاتٌ عَلَى فَذَاذَتِهَا(2) وَرَوْعَتِهَا حَقَائِقُ وَاقِعَةٌ مُوَثَّقَةٌ بِالْأَسَانِيدِ...

---

(1) نبتدع: نأتي ببدعة، وهي الشيء المستحدث.
(2) الفذ: الفريد المتميز.

رَوَتْهَا فِي الْكَثِيرِ الْغَالِبِ جُمُوعٌ عَنْ جُمُوعٍ، تُحِيلُ الْعَادَةُ تَوَاطُؤَهُمْ عَلَىٰ الْكَذِبِ.

وَمَا ذَلِكَ أَيُّهَا السَّادَةُ، إِلَّا لِأَنَّ تَارِيخَنَا يَمْتَازُ مِنْ تَوَارِيخِ الْأُمَمِ الْأُخْرَىٰ بِمِيزَاتٍ ثَلَاثٍ:

• أُولَاهَا: أَنَّهُ تَارِيخٌ طَوِيلٌ؛ دَامَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْناً، تَتَابَعَتْ حَلَقَاتُهَا مِنْ غَيْرِ انْفِصَامٍ[1]...

وَاتَّصَلَ آخِرُهَا بِأَوَّلِهَا بِرِبَاطٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ أَجَلِّ كِتَابٍ، وَحَبْلٍ مِنْ لُغَةِ القُرْآنِ أَكْرَمِ اللُّغَاتِ.

مِمَّا جَعَلَ السَّلَفَ يَعِيشُونَ تَجَارِبَ الْخَلَفِ عَلَىٰ الدَّوَامِ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَباً فِي تَكَاثُرِ الْبُطُولَاتِ لَدَيْنَا وَتَنَوُّعِهَا.

• وَثَانِيَةُ هَذِهِ المِيزَاتِ مِنْ مِيزَاتِ تَارِيخِنَا هِيَ:

---

(١) من غير انفصام: من غير انقطاع.

أَنَّهُ تَارِيخٌ عَرِيضٌ ؛ ذَلِكَ لِأَنَّهُ تَارِيخُ أُمَّةٍ امْتَدَّتْ مِنَ الْمُحِيطِ إِلَى الْمُحِيطِ .

وَانْضَوَتْ[1] تَحْتَ لِوَاءِ قُرْآنِهَا أُمَمٌ وَشُعُوبٌ لَهَا مِنَ الْكِفَايَاتِ ، وَالطَّاقَاتِ ، وَالْمَآثِرِ ، وَالْمَفَاخِرِ مَا يَفُوقُ كُلَّ تَقْدِيرٍ .

وَانْصَهَرَتْ فِيهَا أَلْوَانٌ وَأَعْرَاقٌ لَمْ تَجْتَمِعْ لِأُمَّةٍ مِنْ قَبْلُ ...

فَفِيهَا الْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَالْأَصْفَرُ ...

وَفِيهَا الْعَرَبِيُّ وَالْعَجَمِيُّ .

مِمَّا أَمَدَّهَا بِفَيْضٍ زَاخِرٍ مِنْ أَفْذَاذِ الرِّجَالِ فِي كُلِّ مَجَالٍ مِنْ مَجَالَاتِ الْحَيَاةِ ...

وَمَنَحَهَا ثَرْوَةً مِنَ الْأَبْطَالِ فِي مَيَادِينِ الْحُكْمِ

---

(١) انضوت : انضمت ودخلت .

وَالعِلْمِ، وَالحَرْبِ وَالسِّلْمِ، وَالجُرْأَةِ وَالحَزْمِ، وَالبَذْلِ[1] وَالإِيثَارِ[2]، وَالزَّهَادَةِ[3] وَالعِبَادَةِ، مَا تَتَمَنَّىٰ بَعْضَهُ كُلُّ أُمَّةٍ مِنْ أُمَمِ الأَرْضِ.

● وَثَالِثَتُهَا: أَنَّهُ عَمِيقٌ؛ لِأَنَّ دَولَتَهُ كَانَتْ تَقُومُ عَلَىٰ العَقِيدَةِ...

وَالدَّولَةُ حِينَ تَقُومُ عَلَىٰ العَقِيدَةِ تَحْفَلُ حَيَاتُهَا بِالبُطُولَاتِ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ وَصِنْفٍ.

* * *

(١) البذل: العطاء.
(٢) الإيثار: التفضيل.
(٣) الزهادة: الزهد وهي التخلي والإعراض.

البُطُولَةُ لُغَةً وَاصْطِلَاحاً

وَالآن : مَنِ البَطَلُ ؟... وَمَا البُطُولَةُ ؟!...

مَا تَـحْدِيدُهُمَا ؟... وَمَا تَعْرِيفُهُمَا ؟!...

أَمَّا اللُّغَوِيُّونَ فَيَقُولُونَ عَلَىٰ لِسَانِ شَيْخِهِم ابْنِ مَنْظُورٍ... البَطَلُ : الشُّجَاعُ .

وَقَدْ بَطُلَ الرَّجُلُ يَبْطُلُ بُطُولَةً أَيْ صَارَ شُجَاعاً ...

لَكِنَّ اللُّغَوِيِّينَ حَارُوا فِي تَعْلِيلِ تَسْمِيَةِ الشُّجَاعِ بِهَذَا الِاسْمِ ؛ ذَلِكَ أَنَّهُمْ نَظَرُوا فِي مَادَّةِ (**بَـطَـلَ**) فَوَجَدُوهَا تَدُلُّ عَلَىٰ الذَّهَابِ وَالضَّيَاعِ ، وَالْخُسْرَانِ ، وَالْكَذِبِ وَالْهَزْلِ .

فَالْبَاطِلُ هُوَ: نَقِيضُ الْحَقِّ.

وَالْبَطَالَةُ هِيَ: اتِّبَاعُ اللَّهْوِ وَالمُجُونِ.

وَالبُطْلُ هُوَ: الْكَذِبُ ...

فَمَا الْعَلَاقَةُ بَيْنَ البُطُولَةِ وَبَيْنَ هَذِهِ المَعَانِي؟.

لَقَدْ أَجَابَ اللُّغَوِيُّونَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ بَعْضُهُم:

إِنَّمَا سُمِّيَ الْبَطَلُ بَطَلاً لِأَنَّهُ يُبْطِلُ الْعَظَائِمَ بِسَيْفِهِ وَيُزِيلُهَا بِشَجَاعَتِهِ، وَيَجْعَلُهَا بَهْرَجاً[1] زَائِفاً.

وَقَالَ بَعْضُهُمُ الآخَرُ:

إِنَّمَا دُعِيَ الْبَطَلُ بَطَلاً لِأَنَّ الْأَشِدَّاءَ يَبْطُلُونَ أَمَامَهُ فَلَا يُسَاوُونَ عِنْدَهُ شَيْئًا.

وَقَالَ فَرِيقٌ ثَالِثٌ:

(١) البهرج: الباطل المزيف.

إِنَّمَا أُطْلِقَ عَلَىٰ الشُّجَاعِ اسْمُ الْبَطَلِ لِأَنَّهُ تُهْدَرُ عِنْدَهُ دِمَاءُ الْأَقْرَانِ(١) وَتَبْطُلُ فَلَا يُدْرَكُ لَدَيْهِ ثَأْرٌ .

وَإِذَا تَرَكْنَا الْمُعْجَمَاتِ الْعَرَبِيَّةَ وَذَهَبْنَا إِلَىٰ الْمُعْجَمَاتِ الْأُورُبِّيَةِ ، وَجَدْنَا أَنَّ الْقَوْمَ فَسَّرُوا الْبَطَلَ بِالشُّجَاعِ أَيْضاً ، وَلَمْ يَزِيدُوا شَيْئًا عَلَىٰ مَا قَالَهُ عُلَمَاؤُنَا فِي هَذَا الْمَجَالِ .

* * *

فَهَلِ الْبُطُولَةُ هِيَ الشَّجَاعَةُ ؟ ...

وَهَلْ كُلُّ شُجَاعٍ بَطَلٌ ؟

لَا رَيْبَ(٢) فِي أَنَّ الْجَوَابَ عَلَىٰ ذَٰلِكَ بِالنَّفْيِ ...

فَلَيْسَ كُلُّ شُجَاعٍ بَطَلاً ...

---

(١) الأقران : جمع قِرن بكسر القاف ، وقِرن الرجل : البطل المماثل .
(٢) لا ريب : لا شك .

وَلَيْسَتْ كُلُّ شَجَاعَةٍ بُطُولَةً ...

أَرَأَيْتَ إِلَىٰ كِبَارِ قُطَّاعِ الطُّرُقِ ، وَقَرَاصِنَةِ الْبِحَارِ مِمَّنْ عَرَفَهُمُ التَّارِيخُ فِي الْغَابِرِ(١) ؟...

وَإِلَىٰ الْمَشَاهِيرِ مِنَ السُّطَاةِ عَلَىٰ المَصَارِفِ ، وَمُخْتَطِفِي الطَّائِرَاتِ فِي عَصْرِنَا الْحَاضِرِ؟...

إِنَّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ يَتَحَلَّوْنَ جَمِيعاً بِشَجَاعَةٍ فَذَّةٍ نَادِرَةٍ ...

وَلَكِنَّهُ لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ أَنْ يُسَمِّيَهُمْ أَبْطَالاً .

إِذَنْ فَلَيْسَتِ الْبُطُولَةُ هِيَ الشَّجَاعَةُ .

وَإِنَّمَا الشَّجَاعَةُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ الْبَطَلِ لَا أَكْثَرُ ...

---

(١) الغابر : الزمن الماضي .

وَعَلَىٰ هَذَا فَكُلُّ بَطَلٍ شُجَاعٌ ...

وَلَيْسَ كُلُّ شُجَاعٍ بَطَلاً ...

* * *

وَإِذَا نَحْنُ تَرَكْنَا مُعْجَمَاتِ اللُّغَةِ، وَانْتَقَلْنَا إِلَىٰ مُعْجَمَاتِ المُصْطَلَحَاتِ وَدَوَائِرِ الْمَعَارِفِ وَفَتَّشْنَا فِيهَا عَنْ تَحْدِيدٍ لِمَعْنَىٰ البُطُولَةِ وَمَدْلُولِ الْبَطَلِ ...

لَمْ نَخْرُجْ مِنْهَا بِمَا يَشْفِي الْغَلِيلَ ...

فَهِيَ تُفَسِّرُ الْبُطُولَةَ بِكَلَامٍ رَجْرَاجٍ[1] ...

يَتَّسِعُ مِنْ نَاحِيَةٍ، حَتَّىٰ يَشْمَلَ مَا لَيْسَ بِبُطُولَةٍ ...

وَيَضِيقُ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَىٰ، حَتَّىٰ لَا تَدْخُلَ فِيهِ جَمِيعُ ضُرُوبِ الْبُطُولَاتِ.

(١) الرجراج: المضطرب الذي لا يثبت علىٰ حال.

وَلَعَلَّ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ هُوَ أَنَّ الْبُطُولَةَ مَعْنىً مِنَ الْمَعَانِي الْجَلِيلَةِ الْعَظِيمَةِ ، الَّتِي تَعِزُّ[1] عَلَىٰ التَّعْرِيفِ وَيَضِيقُ عَنْهَا التَّحْدِيدُ .

*   *   *

(١) تعز علىٰ التعريف : يتعذر تعريفها .

مَعَالِمُ الْبُطُولَةِ

عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ الـمَعْنَىٰ الوَاسِعِ لِلْبُطُولَةِ إِلَّا أَنَّنَا سَنُحَاوِلُ أَنْ نُحَدِّدَ لِلْبُطُولَةِ إِطَاراً نُبْرِزُ[1] مِنْ خِلَالِهِ أَهَمَّ مَعَالِمِهَا ...

وَنُلِمُّ بِأَكْبَرِ الْبَوَاعِثِ الَّتِي تَبْعَثُ عَلَيْهَا فَنَقُولُ :

« إِنَّ الْبُطُولَةَ ـ كَمَا بَدَتْ لَنَا ـ كُلُّ مَوْقِفٍ رَائِعٍ فَذٍّ مِنْ مَوَاقِفِ الْـحَيَاةِ ، بَعَثَتْ عَلَيْهِ غَايَةٌ جَلِيلَةٌ نَبِيلَةٌ » .

فَانْدَفَعَ إِلَيْهِ الْبَطَلُ فِي لَـحْظَةٍ مِنْ لَـحَظَاتِ السُّمُوِّ عَلَىٰ كُلِّ مَا يَخْضَعُ لَهُ النَّاسُ مِنْ رَغْبَةٍ ؛

(١) نُبرز : نُظهر ونُبيِّن .

أَوْ رَهْبَةٍ ... إِخْلَاصاً لِمَا آمَنَ بِهِ مِنَ الْقِيَمِ وَالْمُثُلِ .

وَعَلَىٰ هَذَا فَلِلْبُطُولَةِ بَوَاعِثُ شَتَّىٰ تَبْعَثُ عَلَيْهَا ...

وعَلَىٰ هَذا أَيْضاً فَلَيْسَتِ الْبُطُولَةُ مَقْصُورَةً عَلَىٰ الْمَوَاقِفِ الرَّائِعَةِ الْفَذَّةِ الَّتِي يَأْتِي بِهَا الْأَبْطَالُ فِي سَاحَاتِ الْوَغَىٰ[1]...

وَإِنَّمَا هِيَ ضُرُوبٌ وَأَلْوَانٌ .

* * *

---

(١) ساحات الوغىٰ : ساحات الحرب .

بَوَاعِثُ البُطُولَةِ وَضُرُوبُهَا

فَلْنَبْدَأْ بِاسْمِ اللَّهِ وَعَلَىٰ بَرَكَتِهِ بِإِيرَادِ أَهَمِّ الْبَوَاعِثِ الَّتِي تَبْعَثُ عَلَىٰ البُطُولَاتِ .

وَلْنَضْرِبْ لِكُلِّ بَاعِثٍ مِنْهَا مَثَلاً مِنْ تَارِيخِنَا الثَّرِيِّ الغَنِيِّ .

١ ـ الْإِيـمَانُ بِاللَّهِ

لَا رَيْبَ فِي أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ يَقِفُ عَلَىٰ قِمَّةِ الْبَوَاعِثِ الَّتِي تَبْعَثُ عَلَىٰ الْبُطُولَةِ ...

ذَلِكَ لِأَنَّ الْإِيمَانَ الْحَقَّ قُوَّةٌ مُبْدِعَةٌ خَلَّاقَةٌ إِذَا مَسَّتِ الْقُلُوبَ بِسِحْرِهَا ...

اهْتَزَّتْ بِأَرْوَعِ الشَّمَائِلِ[1]...

وَرَبَتْ بِأَجَلِّ الخَصَائِلِ...

وَأَنْبَتَتْ مِنَ الْبُطُولَاتِ أَجَلَّهَا[2] تَضْحِيَةً وَفِدَاءً...

وَأَسْخَاهَا بَذْلاً وَعَطَاءً...

وَأَبْقَاهَا عَلَىٰ الدَّهْرِ.

* * *

وَتَارِيخُنَا الْإِسْلَامِيُّ حَافِلٌ بِهَذَا اللَّوْنِ مِنَ الْبُطُولَاتِ، غَنِيٌّ بِهَا غِنىً يَفُوقُ كُلَّ تَقْدِيرٍ...

فَلَقَدْ عَرَفَهَا المُسْلِمُونَ مُنْذُ الْأَيَّامِ الْأُولَىٰ الَّتِي بَزَغَ[3] فِيهَا فَجْرُ الدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ فِي بَطْحَاءِ مَكَّةَ...

---

(١) الشمائل: الخصال والصفات.

(٢) أجلها: أعظمها.

(٣) بزغ: بدأ ظهوره.

وَصَاحَبُوهَا عَبْرَ تَارِيخِهِمُ الطَّوِيلِ إِلَىٰ يَوْمِ النَّاسِ هَذَا ...

وَسَتَبْقَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ سِمَةً[1] مِنْ سِمَاتِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، حَتَّىٰ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا .

وَنَحْنُ لَنْ نَضْرِبَ مَثَلاً لِهَذَا اللَّوْنِ مِنَ الْبُطُولَةِ ، وَلَا لِغَيْرِهِ ... مِنْ حَيَاةِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ ، عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ حَيَاتَهُ كُلَّهَا مَلْحَمَةٌ[2] مِنْ أَرْوَعِ الْمَلَاحِمِ الَّتِي ازْدَانَ بِهَا مَفْرِقُ[3] التَّارِيخِ ...

ذَلِكَ لِأَنَّنَا لَا نُرِيدُ أَنْ نُطْلِقَ عَلَىٰ الرَّسُولِ الْعَظِيمِ ﷺ لَقَبَ الْبَطَلِ كَمَا فَعَلَ « كَارْلِيلُ »[4] وَغَيْرُهُ ...

---

(١) السِمة : العلامة .

(٢) الملحمة : عمل شعري كبير ينظم في وصف الحروب وجيوشها وأبطالها .

(٣) مفرق الرأس : مكان فرق الشعر .

(٤) كارليل Carlyle: مستشرق إنجليزي، كان من مدرسي العربية في بلاده .

فَصِفَةُ الْبُطُولَةِ لَا تَرْفَعُ مِنْ شَأْنِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ وَلَا تُعْلِي مِنْ قَدْرِهِ شَيْئًا ...

فَحَسْبُهُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ...

وَحَسْبُهُ أَنَّهُ أَبُو الْأَبْطَالِ، وَصَانِعُهُمْ عَلَىٰ عَيْنِهِ.

وَإِنَّمَا سَنَنْتَزِعُ أَمْثِلَتَنَا مِنْ تَلَامِذَةِ مَدْرَسَةِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ...

* * *

وَنَحْنُ لَنْ نَنْسَىٰ فِي هَذَا الْمَجَالِ بِلَالاً وَخَبَّاباً وَسُمَيَّةَ(١)، فَهَذِهِ أَسْمَاءٌ لَا تُنْسَىٰ ...

لَكِنَّنَا لَنْ نَتَحَدَّثَ عَنْ بُطُولَاتِ هَؤُلَاءِ ...

فَبُطُولَاتُهُمْ مُسْتَكِنَّةٌ فِي ضَمِيرِ كُلِّ مُسْلِمٍ ...

---

(١) انظرهم في كتاب «صور من حياة الصّحابة» للمؤلف، الناشر دار الأدب الإسلامي، الطبعة المشروعة.

مَاثِلَةٌ لِعَيْنِ كُلِّ مُؤْمِنٍ .

وَإِنَّمَا سَنَعْرِضُ لِبَطَلٍ آخَرَ مِنْ أَتْرَابِهِمْ(١) أَقَلَّ مِنْهُمْ شُهْرَةً ذَلِكُمُ الْبَطَلُ هُوَ :

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ السَّهْمِيُّ(٢)...

لَقَدْ قُدِّرَ لِابْنِ الصَّحْرَاءِ هَذَا ؛ أَنْ يَطَأَ بَلَاطَيْ عَظِيمَيِ الدُّنْيَا فِي عَصْرِهِ ؛ « كِسْرَىٰ » وَ« قَيْصَرَ » ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُ مَعَ كُلٍّ مِنْهُمَا مَوْقِفٌ لَا يُنْسَىٰ ...

وَالَّذِي يَعْنِينَا الْآنَ هُوَ مَوْقِفُهُ مَعَ « قَيْصَرَ » عَظِيمِ الرُّومِ ...

فَمَا قِصَّةُ هَذَا الْمَوْقِفِ ؟!

* * *

---

(١) أترابهم : لداتهم وأصحابهم .

(٢) اقرأ قصته مع كسرىٰ ملك الفرس في كتاب « صور من حياة الصَّحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

فِي السَّنَةِ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ لِلْهِجْرَةِ بَعَثَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ جَيْشاً لِحَرْبِ الرُّومِ فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ السَّهْمِيُّ ...

وَكَانَ قَيْصَرُ عَظِيمُ الرُّومِ قَدْ تَنَاهَتْ(١) إِلَيْهِ أَخْبَارُ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَا يَتَحَلَّوْنَ(٢) بِهِ مِنْ صِدْقِ الْإِيمَانِ، وَرُسُوخِ الْعَقِيدَةِ، وَاسْتِرْخَاصِ النَّفْسِ وَالنَّفِيسِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

فَأَمَرَ رِجَالَهُ إِذَا ظَفِرُوا بِأَسِيرٍ مِنْ أَسْرَىٰ الْمُسْلِمِينَ السَّابِقِينَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ أَنْ يُبْقُوا عَلَيْهِ، وَأَنْ يَأْتُوهُ بِهِ حَيًّا ...

وَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ السَّهْمِيُّ أَسِيراً فِي أَيْدِي الرُّومِ؛ فَحَمَلُوهُ إِلَىٰ مَلِيكِهِمْ ...

---

(١) تناهت إليه: بلغته.
(٢) يتحلّون به: يتصفون به.

وَقَالُوا : إِنَّ هَذَا مِنْ أَصْحَابِ مَحَمَّدٍ السَّابِقِينَ إِلَىٰ دِينِهِ ، وَقَدْ وَقَعَ أَسِيراً فِي أَيْدِينَا ؛ فَأَتَيْنَاكَ بِهِ .

* * *

نَظَرَ مَلِكُ الرُّومِ إِلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ طَوِيلاً ثُمَّ بَادَرَهُ قَائِلاً :

إِنِّي أَعْرِضُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَنَصَّرَ ... فَإِنْ فَعَلْتَ ؛ أَطْلَقْتُ سَرَاحَكَ ، وَأَشْرَكْتُكَ فِي مُلْكِي ، وَقَاسَمْتُكَ سُلْطَانِي .

فَتَبَسَّمَ الأَسِيرُ المُكَبَّلُ(١) فِي قُيُودِهِ وَقَالَ :

وَاللَّهِ لَوْ أَعْطَيْتَنِي جَمِيعَ مَا تَمْلِكُ ، وَجَمِيعَ مَا مَلَكَتْهُ العَرَبُ ، عَلَىٰ أَنْ أَرْجِعَ عَنْ دِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ طَرْفَةَ عَيْنٍ(٢) مَا فَعَلْتُ .

---

(١) المكبل : المقيَّد .
(٢) طرفة عين : بمقدار ما يتحرك جفن العين .

قَالَ : إِذَنْ أَقْتُلُكَ .

قَالَ : أَنْتَ وَمَا تُرِيدُ .

ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَصُلِبَ ...

وَقَالَ لِقَنَّاصَتِهِ - بِالرُّومِيَّةِ - :

ارْمُوهُ قَرِيباً مِنْ يَدَيْهِ ...

وَهُوَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ التَّنَصُّرَ فَأَبَىٰ .

فَقَالَ : ارْمُوهُ قَرِيباً مِنْ رِجْلَيْهِ ...

وَهُوَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ مُفَارَقَةَ دِينِهِ فَأَبَىٰ .

وَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَهُمْ أَنْ يَكُفُّوا عَنْهُ ، وَطَلَبَ إِلَيْهِمْ أَنْ يُنْزِلُوهُ عَنْ خَشَبَةِ الصَّلْبِ ...

ثُمَّ دَعَا بِقِدْرٍ عَظِيمَةٍ فَصُبَّ فِيهَا الزَّيْتُ ، وَرُفِعَتْ عَلَىٰ النَّارِ حَتَّىٰ غَلَتْ ...

ثُمَّ دَعَا بِأَسِيرَيْنِ مِنْ أُسَارَىٰ المُسْلِمِينَ ، فَأَمَرَ بِأَحَدِهِمَا أَنْ يُلْقَىٰ فِيهَا ...

فَأُلْقِيَ ، فَإِذَا لَحْمُهُ يَتَفَتَّتُ ، وَإِذَا عِظَامُهُ تَبْدُو عَارِيَةً ...

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ وَدَعَاهُ إِلَىٰ النَّصْرَانِيَّةِ ، فَكَانَ أَشَدَّ إِبَاءً لَهَا مِنْ قَبْلُ ...

فَلَمَّا يَئِسَ مِنْهُ ؛ أَمَرَ بِهِ أَنْ يُلْقَىٰ فِي الْقِدْرِ الَّتِي أُلْقِيَ فِيهَا صَاحِبَاهُ فَلَمَّا ذُهِبَ بِهِ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ ...

فَقَالَ رِجَالُ قَيْصَرَ لِمَلِكِهِمْ : إِنَّهُ قَدْ بَكَىٰ ...

فَظَنَّ أَنَّهُ قَدْ جَزِعَ[1]... وَقَالَ :

رُدُّوهُ إِلَيَّ .

فَلَمَّا مَثُلَ بَيْنَ يَدَيْهِ عَرَضَ عَلَيْهِ النَّصْرَانِيَّةَ ، فَأَبَاهَا .

---

(١) جزع : خاف .

فَقَالَ : وَيْحَكَ[1]، فَمَا الَّذِي أَبْكَاكَ إِذَنْ ؟!

قَالَ أَبْكَانِي أَنِّي قُلْتُ فِي نَفْسِي :

تُلْقَىٰ الآنَ فِي هَذِهِ الْقِدْرِ ، فَتَذْهَبُ نَفْسُكَ ، وَقَدْ كُنْتُ أَشْتَهِي أَنْ يَكُونَ لِي بَعَدَدِ مَا فِي جَسَدِي مِنْ شَعْرٍ أَنْفُسٌ ؛ فَتُلْقَىٰ كُلُّهَا فِي هَذِهِ الْقِدْرِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

فَقَالَ الطَّاغِيَةُ :

هَلْ لَكَ أَنْ تُقَبِّلَ رَأْسِي ، وَأُخَلِّيَ عَنْكَ ؟

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ :

وَعَنْ جَمِيعِ أُسَارَىٰ الْمُسْلِمِينَ أَيْضاً ؟

قَالَ : وَعَنْ جَمِيعِ أُسَارَىٰ الْمُسْلِمِينَ أَيْضاً .

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : عَدُوٌّ مِنْ

---

(١) ويحك : ويل لك ، وكثيراً ما تستعمل للترحم والتوجع .

أَعْدَاءِ اللَّهِ، أُقَبِّلُ رَأْسَهُ فَيُخَلِّي عَنِّي وَعَنْ أُسَارَىٰ الـمُسْلِمِينَ جَمِيعاً، لَا ضَيْرَ[1] فِي ذَلِكَ عَلَيَّ ...

ثُمَّ دَنَا مِنْهُ وَقَبَّلَ رَأْسَهُ، فَأَمَرَ مَلِكُ الرُّومِ أَنْ يَجْمَعُوا لَهُ أُسَارَىٰ الـمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَدْفَعُوهُمْ إِلَيْهِ، فَدُفِعُوا لَهُ.

* * *

فَلَمَّا قَدِمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُذَافَةَ عَلَىٰ عُمَرَ بْنِ الـخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَصَّ عَلَيْهِ خَبَرَهُ سُرَّ بِهِ الْفَارُوقُ أَعْظَمَ السُّرُورِ ...

وَلَـمَّا نَظَرَ إِلَىٰ الْأَسْرَىٰ قَالَ: حَقٌّ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُقَبِّلَ رَأْسَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ ...

وَأَنَا أَبْدَأُ بِذَلِكَ ... ثُمَّ قَامَ وَقَبَّلَ رَأْسَهُ ...

* * *

(١) لا ضير: لا ضرر.

٢ ـ الكَرَامَةُ وَالعِزَّةُ

وَمِنْ بَوَاعِثِ الْبُطُولَةِ الْكُبْرَىٰ الشُّعُورُ الْعَمِيقُ بِالْكَرَامَةِ ...

وَالْإِحْسَاسُ الشَّدِيدُ بِالْعِزَّةِ ...

وَالْأَنَفَةُ(١) مِنَ الْعَارِ ...

وَمَنْ يَسْتَعْرِضْ تَارِيخَنَا الثَّرِيَّ الْغَنِيَّ يَجِدْ فِيهِ أَلْفَ بُطُولَةٍ وَبُطُولَةٍ بَعَثَتْ عَلَيْهَا الْعِزَّةُ وَالْأَنَفَةُ ...

وَدَفَعَ إِلَيْهَا الْكِبْرِيَاءُ وَالْإِبَاءُ .

* * *

(١) الأنفة : العزة والحمية .

فَعُقْبَةُ بْنُ نَافِعٍ أَقْبَلَ عَلَىٰ مَوَارِدِ الرَّدَىٰ(١) يَوْمَ « تَهُوذَةَ »(٢)؛ أَنَفَةً مِنَ الْعَارِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّهُ لَا صَدَرَ(٣) بَعْدَ هَذَا الْوُرُودِ(٤).

وَمُحَمَّدُ بْنُ حُمَيْدٍ الطُّوسِيُّ رَأَىٰ بَابَ الْمَوْتِ مُشْرَعاً أَمَامَهُ ...

فَدَخَلَهُ أَنَفَةً مِنْ عَارِ الْفِرَارِ .

وَأَبُو فِرَاسٍ الْحَمْدَانِيُّ وَقَفَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَحْلَاهُمَا مُرٌّ ...

فَاخْتَارَ الْأَسْرَ مَعَ الْكَرَامَةِ ، عَلَىٰ النَّجَاةِ مَعَ الْهَوَانِ(٥).

* * *

(١) الردىٰ : القتل .
(٢) تَهُوذَة : منطقة في شمال افريقيا .
(٣) الصَّدَر : الرجوع والإنصراف .
(٤) الورود أو الورد : الإشراف علىٰ المكان .
(٥) الهوان : الذلة والضعف .

وَفِي تَارِيخِنَا الْحَدِيثِ مَوَاقِفُ رَائِعَةٌ مِنَ الْبُطُولَاتِ الَّتِي بَعَثَ عَلَيْهَا الشُّعُورُ بِالْكَرَامَةِ، وَالْأَنَفَةُ الْمُتَعَالِيَةُ، عَلَىٰ الِاسْتِخْزَاءِ[1] أَمَامَ الْأَجْنَبِيِّ الْمُسْتَعْمِرِ.

مِنْ ذَلِكَ مَا دَوَّنَهُ تَارِيخُ هَذَا الْقَرْنِ لِلْقَاضِي الْمِصْرِيِّ الدُّكْتُور عَبْدِ السَّلَام ذُهْنِي...

مِنْ مَوْقِفٍ بُطُولِيٍّ؛ هَزَّ الشَّرْقَ وَالْغَرْبَ هَزًّا...

وَكَتَبَ فِيهِ الْأُدَبَاءُ وَالشُّعَرَاءُ مِنْ رَوَائِعِ الْبَيَانِ، مَا هُوَ جَدِيرٌ بِالدِّرَاسَةِ وَالتَّقْوِيمِ.

وَإِلَيْكُمْ أَيُّهَا السَّادَةُ خُلَاصَةً لِذَلِكَ الْمَوْقِفِ الْمُثِيرِ...

* * *

(١) الاستخزاء: الاستحياء، وهو هنا فعل ما يبعث على الخزي والهوان.

فِي فَتْرَةِ الاحْتِلَالِ الْبِرِيطَانِيِّ لِمِصْرَ، أُعْطِيَتْ لِرَعَايَا الدُّوَلِ الْأَجْنَبِيَّةِ الْمُقِيمِينَ فِي أَرْضِ الْكِنَانَةِ، كَثِيرٌ مِنَ الِامْتِيَازَاتِ الْعَجِيبَةِ الْغَرِيبَةِ ...

وَكَانَ فِي جُمْلَةِ هَذِهِ الِامْتِيَازَاتِ إِعْفَاءُ الْأَجَانِبِ مِنَ الْخُضُوعِ لِلْقَضَاءِ الْمِصْرِيِّ، وَالتَّقَاضِي أَمَامَ الْمَحَاكِمِ الْقُنْصُلِيَّةِ.

فَإِذَا شَجَرَ(١) بَيْنَ الأَجَانِبِ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ خِلَافٌ ...

أَوْ وَقَعَ الخِلَافُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَحَدِ المِصْرِيِّينَ ...

رُفِعَ الْأَمْرُ إِلَىٰ قُنْصُلِيَّةِ الرَّجُلِ الْأَجْنَبِيِّ، فَتَقْضِي فِيهِ دُونَ أَنْ يَكُونَ لِلسُّلُطَاتِ المِصْرِيَّةِ أَيُّ سُلْطَانٍ عَلَىٰ مَا تُصْدِرُهُ هَذِهِ القُنْصُلِيَّاتُ مِنْ أَحْكَامٍ.

* * *

(١) شَجَرَ بينهم: حدث ما يتنازعون فيه.

وَفِي الثَّلَاثِينِيَّاتِ مِنْ هَذَا الْقَرْنِ ، أُلْغِيَتْ هَذِهِ الْمَحَاكِمُ الْقُنْصُلِيَّةُ ، وَنُقِلَتْ صَلَاحِيَّاتُهَا إِلَىٰ مَا دُعِيَ بِالْمَحَاكِمِ الْمُخْتَلِطَةِ ...

وَكَانَتِ الْمَحَاكِمُ الْمُخْتَلِطَةُ تَتَأَلَّفُ مِنْ قُضَاةٍ إِنْكِلِيزٍ ، وَفَرَنْسِيِّينَ وَأَلْمَانٍ وَسِوِيسْرِيِّينَ وَإِيطَالِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ ، وَمِنْ قَاضٍ مِصْرِيٍّ أَيْضاً .

وَكَانَ رَئِيسُ الْمَحْكَمَةِ الْمُخْتَلِطَةِ آنَذَاكَ رَجُلاً فَرَنْسِيًّا ، يُدْعَىٰ « هُودِيِيه » ، وَكَانَ عَدَدُ قُضَاتِهَا اثْنَيْ عَشَرَ قَاضِياً ؛ فِيهِمْ أَحَدَ عَشَرَ أَجْنَبِيًّا وَقَاضٍ مِصْرِيٌّ وَاحِدٌ .

ذَلِكَ الْقَاضِي هُوَ الدُّكْتُور عَبْدُ السَّلَامِ ذُهْنِي .

* * *

كَانَ الدُّكْتُور عَبْدُ السَّلَام ذُهْنِي أَحَدَ الْقَانُونِيِّينَ الْمِصْرِيِّينَ الَّذِينَ تَثَقَّفُوا بِالثَّقَافَتَيْنِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْفَرَنْسِيَّةِ .

وَقَدِ اشْتَغَلَ مُدَّةً غَيْرَ قَلِيلَةٍ بِالمُحَامَاةِ ؛ عُرِفَ خِلَالَهَا بِالاسْتِقَامَةِ وَالْأَمَانَةِ وَالصِّدْقِ .

ثُمَّ نُقِلَ إِلَىٰ سِلْكِ الْقَضَاءِ ؛ فَشُهِرَ بَيْنَ النَّاسِ بِالصَّلَابَةِ فِي الْحَقِّ ، وَالْأَنَاةِ(١) فِي الْعَمَلِ ، وَالحِرْصِ عَلَىٰ أَدَاءِ الْوَاجِبِ ...

ثُمَّ نُقِلَ مِنَ القَضَاءِ الحُكُومِيِّ إِلَى المَحْكَمَةِ المُخْتَلِطَةِ فِي الْقَاهِرَةِ .

وَكَانَتِ المَادَّةُ السَّادِسَةَ عَشرَةَ مِنْ نِظَامِ الْمَحْكَمَةِ المُخْتَلِطَةِ تَنُصُّ عَلَىٰ أَنَّ اللُّغَاتِ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي المَحْكَمَةِ فِي المُرَافَعَاتِ وَتَدْوِينِ الْأَحْكَامِ هِيَ ...

الْعَرَبِيَّةُ وَالْإِنْجِلِيزِيَّةُ وَالْفَرَنْسِيَّةُ وَالْإِيطَالِيَّةُ ...

---

(١) الأناة : التمهل والوقار والحلم .

لَكِنَّهُ لَمْ يَحْدُثْ قَطّ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنْ صَدَرَ حُكْمٌ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَوْ تَمَّتْ مُرَافَعَةٌ بِهَا .

وَقَدْ دَأَبَ الْقَاضِي المِصْرِيُّ الدُّكْتُور عَبْدُ السَّلَامِ ذُهْنِي ، خِلَالَ ثَلَاثَةِ الأَشْهُرِ الْأُولَىٰ مِنْ تَوَلِّيهِ لِمَنْصِبِهِ ، عَلَىٰ إِصْدَارِ أَحْكَامِهِ بِالْفَرَنْسِيَّةِ ...

وَكَانَ تَمَكُّنُهُ مِنْ هَذِهِ اللُّغَةِ وَدِقَّتُهُ فِي اسْتِعْمَالِهَا مَثَارَ دَهْشَةِ الرَّئِيسِ الْفَرَنْسِيِّ وَإِعْجَابِهِ بِهِ ، وَبَاعِثاً(١) لَهُ عَلَىٰ تَوْجِيهِ كِتَابِ شُكْرٍ لَهُ .

* * *

لَكِنَّهُ فِي الْيَوْمِ السَّادِسَ عَشَرَ مِنْ نِيسَانَ « إِبْرِيل » سَنَةَ أَلْفٍ وَتِسْعِمِائَةٍ وَأَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ ، أَعْلَنَ الدُّكْتُور عَبْدُ السَّلَامِ ذُهْنِي أَوَّلَ حُكْمٍ صَدَرَ فِي هَذِهِ المَحْكَمَةِ بِالْعَرَبِيَّةِ مِنْذُ إِنْشَائِهَا ...

---

(١) باعثاً : دافعاً وحاملاً عَلَىٰ فعل الشيء .

لَقَدْ أَعْلَنَ الحُكْمَ وَسَجَّلَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَرَفَعَهُ إِلَىٰ الرَّئِيسِ الْفَرَنْسِيِّ ...

وَقَدْ كَانَ الحُكْمُ الَّذِي أَصْدَرَهُ الْقَاضِي المِصْرِيُّ عَبْدُ السَّلَامِ ذُهْنِي بِمَثَابَةِ قُنْبُلَةٍ اهْتَزَّتْ لَهَا دَوَائِرُ الاسْتِعْمَارِ كُلُّهَا...

وَشَغَلَتِ الصُّحُفَ وَالمَجَلَّاتِ حِيناً مِنَ الزَّمَنِ ...

فَقَدْ دَعَا رَئِيسُ الْمَحْكَمَةِ الْأَعْضَاءَ الْأَحَدَ عَشَرَ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ الْأَمْرَ؛ فَأَصْدَرُوا قَرَاراً بِاسْتِنْكَارِ[1] مَا فَعَلَهُ الْقَاضِي المِصْرِيُّ ...

وَاحْتَجَّتِ الدُّوَلُ الْأَجْنَبِيَّةُ ذَوَاتُ الْعَلَاقَةِ لَدَىٰ الْحُكُومَةِ المِصْرِيَّةِ عَلَىٰ فَعْلَةِ قَاضِيهَا ...

---

(١) الاستنكار: الاستغراب وعدم الإقرار.

وَرَفَضَ رَئِيسُ المَحْكَمَةِ أَنْ يُوَقِّعَ الْحُكْمَ .

* * *

لَكِنَّ عَبْدَ السَّلَامِ ذُهْنِي أَصَرَّ عَلَى شَرْعِيَّةِ عَمَلِهِ ...

وَرَفَضَ أَنْ يَنْصَاعَ(١) لِأَمْرِ رَئِيسِ المَحْكَمَةِ .

وَوَاصَلَ نَظَرَ الْقَضَايَا المُحَالَةِ إِلَيْهِ بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ ...

وَأَمَرَ الكُتَّابَ بِتَدْوِينِ الْأَحْكَامِ بِهَا .

وَالْتَقَى الْحُكَّامُ الْأَحَدَ عَشَرَ مَعَ عَبْدِ السَّلَامِ ذُهْنِي لِيُقْنِعُوهُ بِالْعُدُولِ عَنْ مَسْلَكِهِ فَلَمْ يُفْلِحُوا ...

وَقَالُوا لَهُ : إِنَّ رَئِيسَ الْمَحْكَمَةِ لَا يَعْرِفُ العَرَبِيَّةَ ...

---

(١) ينصاع : يرجع عما هو فيه .

فَقَالَ لَهُمْ : وَهُوَ لَا يَعْرِفُ الْإِيطَالِيَّةَ وَالْإِنْكِلِيزِيَّةَ أَيْضاً... وَمَعَ هَذَا فَإِنَّهُ لَا يُمَانِعُ فِي إِصْدَارِ الْأَحْكَامِ بِهِمَا.

وَقَالُوا لَهُ : إِنَّ هَذِهِ بِدْعَةٌ لَمْ يَأْتِ بِهَا أَحَدٌ مِنَ الْقُضَاةِ الْمِصْرِيِّينَ الَّذِينَ سَبَقُوكَ.

فَقَالَ لَهُمْ : إِنَّهُمْ قَصَّرُوا فِي عَدَمِ اسْتِعْمَالِ حَقِّهِمُ الَّذِي أَقَرَّهُ لَهُمْ نِظَامُ الْمَحْكَمَةِ...

وَأَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أُتَابِعَهُمْ فِي تَقْصِيرِهِمْ...

عِنْدَ ذَلِكَ امْتَنَعَ رَئِيسُ الْمَحْكَمَةِ عَنْ تَوْجِيهِ أَيِّ قَضِيَّةٍ لِعِبْدِ السَّلَامِ ذُهْنِي بِقَصْدِ الاسْتِهَانَةِ بِهِ...

فَأَخَذَ هُوَ زِمَامَ الْمُبَادَرَةِ وَجَعَلَ يُهَاجِمُ الرَّئِيسَ وَيَحْتَجُّ عَلَيْهِ...

وَشَاعَ الْأَمْرُ وَذَاعَ، لَا فِي مِصْرَ وَحْدَهَا، وَإِنَّمَا فِي أَرْجَاءِ الْعَالَمَيْنِ الْعَرَبِيِّ وَالْإِسْلَامِيِّ...

وَوَقَعَتِ الحُكُومَةُ المِصْرِيَّةُ فِي حَرَجٍ مَا بَعْدَهُ مِنْ حَرَجٍ ...

نَتِيجَةً لِضَغْطِ الدُّوَلِ الْأَجْنَبِيةِ عَلَيْهَا مِنْ جِهَةٍ ...

وَضَغْطِ الرَّأْيِ الْعَامِّ الْمِصْرِيِّ عَلَيْهَا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ ...

وَحَاوَلَتْ أَنْ تُقْنِعَ قَاضِيَهَا بِسُلُوكِ مَسْلَكِ اللِّينِ فِي مَوْقِفِهِ بِالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ ...

فَوَجَدَتْهُ كَالطَّوْدِ الرَّاسِخِ[1] لَا يَتَزَعْزَعُ وَلَا يَتَزَحْزَحُ ...

* * *

وَطَفِقَتِ[2] الْبَرْقِيَّاتُ وَالرَّسَائِلُ تَنْهَالُ عَلَىٰ

(١) الطود الراسخ : الجبل العظيم الثابت .
(٢) طفقت : أخذت البرقيات تتوالى .

الْقَاضِي الشُّجَاعِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ فِي مِصْرَ وَخَارِجَ مِصْرَ ...

وَهَبَّ الشُّعَرَاءُ وَالْكُتَّابُ يَنْظِمُونَ الْقَصَائِدَ وَيُدَبِّجُونَ(١) الْمَقَالَاتِ، وَيَمْلَأُونَ بِهَا الصُّحُفَ وَالْمَجَلَّاتِ ...

انْتِصَاراً لِلُغَةِ الْقُرْآنِ الَّتِي يُرَادُ لَهَا أَنْ تُهَانَ فِي بَلَدِ الْأَزْهَرِ ...

ثُمَّ انْجَلَتِ الْمَعْرَكَةُ عَنْ نَصْرٍ مُؤَزَّرٍ لِلْحَقِّ ... وَهَزِيمَةٍ مُنْكَرَةٍ لِلْبَاطِلِ ...

وَدِيوَانٍ كَبِيرٍ مِنَ الْأَدَبِ ... أَوْحَتْ بِهِ بُطُولَةُ الْقَاضِي العَرَبِيِّ الْمُسْلِمِ الْمَغْفُورِ لَهُ الدُّكْتُور عَبْدِ السَّلَامِ ذُهْنِي عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللَّهِ.

* * *

(١) يُدَبِّجون: يزينون ويكتبون الكلام الجميل.

٣ ـ الحُبُّ فِي اللَّهِ

وَمِنْ بَوَاعِثِ الْبُطُولَةِ الْكُبْرَىٰ الْحُبُّ ...

فَكَمْ سَجَّلَ التَّارِيخُ فِي أَسْفَارِهِ مِنْ بُطُولَاتِ الْمُحِبِّينَ وَتَضْحِيَاتِهِمْ ...

قِصَصاً تَسْتَلِينُ الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ، وَتَسْتَدِرُّ الدُّمُوعَ الْعَاصِيَةَ ...

وَالْحُبُّ أَنْوَاعٌ ...

لَكِنَّ أَسْمَىٰ ضُرُوبِهِ سُمُوًّا، وَأَرْفَعَهَا رِفْعَةً، وَأَخْصَبَهَا عَطَاءً ...

الْحُبُّ فِي اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ.

* * *

وَلَوْ جَمَعْنَا مَا وَعَاهُ تَارِيخُنَا مِنْ بُطُولَاتِ الحُبِّ فِي اللَّهِ لَحَظَيْنَا بِدِيوَانٍ مِنَ الْقَصَصِ العَبِقِ[١] بِطُيُوبِ الْإِيمَانِ المُتَأَلِّقِ بِسَنَا[٢] الْعَقِيدَةِ .

* * *

وَلَعَلَّ أَرْوَعَ مَثَلٍ عَلَىٰ هَذَا الحُبِّ وَبُطُولَاتِهِ ...

مَا رَوَتْهُ كُتُبُ التَّرَاجِمِ وَالسِّيَرِ عَنْ خُبَيْبِ بْنِ عَدِيٍّ ، فَلَقَدْ ظَفِرَتْ بِهِ قُرَيْشٌ بَعْدَ بَدْرٍ ...

فَعَزَمَتْ عَلَىٰ أَنْ تُنَكِّلَ[٣] بِهِ أَشَدَّ التَّنْكِيلِ وَأَقْسَاهُ ، انْتِقاماً لِقَتْلَاهَا الَّذِينَ غَيَّبَهُمُ الْقَلِيبُ[٤].

* * *

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ خَرَجَتْ مَكَّةُ بِقَضِّهَا[٥]

(١) العبق : العَطِر .
(٢) بسنا العقيدة : بنور العقيدة .
(٣) تنكل به : تذيقه أشد العذاب .
(٤) القَليب : بئر ألقيت فيها جثث المشركين من قتلىٰ غزوة بَدْر الكبرىٰ .
(٥) بقضها وقضيضها : جميعها .

وَقَضِيضِهَا ، وَشِيبِهَا وَوِلْدَانِهَا ، نَحْوَ مِنْطقَةِ التَّنْعِيمِ فِي ظَاهِرِ مَكَّةَ ...

وَهُمْ يَسُوقُونَ أَمَامَهُمْ أَسِيرَهُمُ الْمُكَبَّلَ بِقُيُودِهِ ؛ لِيَقْتُلُوهُ هُنَاكَ عَلَىٰ مَلَأٍ مِنَ الْقَوْمِ(١)...

وَكَانَ عَلَىٰ رَأْسِ النَّاسِ جَمِيعاً أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ ، وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ ...

فَلَمَّا بَلَغُوا مَوْضِعَ الْقَتْلِ ، رَفَعُوا خُبَيْباً عَلَىٰ نَشَزٍ(٢) مِنَ الْأَرْضِ ، وَثَبَّتُوهُ عَلَىٰ خَشَبَةِ الصَّلْبِ ...

وَهُنَا تَقَدَّمَ مِنْهُ أَبُو سُفْيَانَ وَقَالَ لَهُ :

أَنْشُدُكَ اللَّهَ ، أَتُحِبُّ أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ مَكَانَكَ الآنَ تُضْرَبُ عُنُقُهُ وَأَنَّكَ آمِنٌ فِي أَهْلِكَ ؟

فَابْتَسَمَ خُبَيْبٌ وَقَالَ :

---

(١) عَلَىٰ ملأٍ من القوم : جموع من الناس .
(٢) نَشَزٍ من الأرض : مكان مرتفع من الأرض .

وَاللَّهِ مَا أُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّداً ﷺ فِي مَكَانِهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ الآنَ ، وَأَنَّ شَوْكَةً تُصِيبُهُ فَتُؤْذِيهِ ، وَأَنِّي جَالِسٌ فِي أَهْلِي .

فَأَمَرَ أَبُو سُفْيَانَ أَنْ يُمَثَّلَ[1] بِهِ حَيًّا ...

وَأَعَادَ عَلَيْهِ السُّؤَالَ كَرَّةً أُخْرَىٰ ...

فَأَجَابَ بِمَا أَجَابَ بِهِ مِنْ قَبْلُ ؛ وَظَلَّ عَلَىٰ ذَٰلِكَ :

فَأَبُو سُفْيَانَ يَسْأَلُهُ ...

وَهُوَ لَا يَتَحَوَّلُ عَنْ جَوَابِهِ ...

وَالسَّيَافُ يَقْطَعُ بِضْعَةً مِنْهُ ...

حَتَّىٰ لَفِظَ أَنْفَاسَهُ الْأَخِيرَةَ .

---

(١) التمثيل به : تقطيع أجزاء من بدنه ، جزءاً بعد جزء .

فَمَا كَانَ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ إِلَّا أَنْ قَالَ :

وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَحَداً مِنَ النَّاسِ يُحِبُّ أَحَداً كَحُبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ... مُحَمَّداً .

* * *

٤ ـ الإِيثَارُ عَلَىٰ النَّفْسِ

وَمِنْ بَوَاعِثِ الْبُطُولَةِ الَّتي مَلأَتِ الدُّنْيا بِعَظَائِمِ الْمَوَاقِفِ خُلُقُ الْإِيثَارِ ...

وَالْإِيثَارُ عَلَىٰ النَّفْسِ مِنَ المَكَارِمِ الَّتي خَصَّهَا اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ بِالذِّكْرِ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ .

وَنَعَتَ بِهَا أَنْصَارَ نَبِيِّهِ ﷺ فِي جُمْلَةِ مَا نَعَتَهُمْ بِهِ مِنْ جَلِيلِ الشَّمَائِلِ ...

فَقَالَ عَلَتْ كَلِمَتُهُ :

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1].

* * *

(١) سورة الحشر : آية ٩.

وَتَارِيخُنَا حَافِلٌ بِبُطُولَاتِ الْإِيثَارِ عَلَىٰ النَّفْسِ غَنِيٌّ بِهَا .

فَلَوْ نَسِيَ الْمُسْلِمُونَ المَوَاقِفَ كُلَّهَا ...

فَإِنَّهُمْ لَنْ يَنْسَوْا ذَلِكَ المَوْقِفَ الرَّائِعَ الَّذِي خُتِمَتْ بِهِ مَعْرَكَةُ « الْيَرْمُوكِ »(١)...

ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا انْجَلَتْ تِلْكَ الْوَاقِعَةُ الْفَاصِلَةُ عَنْ ذَلِكَ النَّصْرِ المُؤَزَّرِ لِلْمُسْلِمِينَ ؛ كَانَ يَتَمَدَّدُ عَلَىٰ أَرْضِ الْيَرْمُوكِ ثَلَاثَةُ أَبْطَالٍ أَثْخَنَتْهُم(٢) الْجِرَاحُ هُمْ :

الحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ ، وَعَيَّاشُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَعِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ(٣)...

فَدَعَا الحَارِثُ بِمَاءٍ لِيَشْرَبَهُ ...

---

(١) معركة اليرموك : إحدىٰ المعارك الفاصلة في التاريخ ، وقعت في السنة الخامسة عشرة للهجرة وانتصر فيها المسلمون عَلَىٰ الرُّوم نصراً كبيراً .

(٢) أثخنتهم الجراح : أضعفتهم وأوهنت قواهم .

(٣) عكرمة بن أبي جهل : انظره في كتاب « صور من حياة الصَّحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

فَلَمَّا قُدِّمَ لَهُ ... نَظَرَ إِلَيْهِ عِكْرِمَةُ فَقَالَ :

ادْفَعُوهُ إِلَيْهِ ...

فَلَمَّا قَرَّبُوهُ مِنْ عِكْرِمَةَ ... نَظَرَ إِلَيْهِ عَيَّاشٌ فَقَالَ : ادْفَعُوهُ إِلَيْهِ ...

فَلَمَّا دَنَوْا مِنْ عَيَّاشٍ وَجَدُوهُ قَدْ قَضَىٰ نَحْبَهُ[1] ...

فَلَمَّا عَادُوا إِلَىٰ صَاحِبَيْهِ وَجَدُوهُمَا قَدْ لَحِقَا بِهِ .

* * *

(١) قضى نحبه : مات .

٥ ـ غِنَىٰ النَّفْسِ (الزَّهَادَةُ)

وَمِنْ بَوَاعِثِ الْبُطُولَةِ أَيْضاً غِنَىٰ النَّفْسِ، وَالزَّهَادَةُ بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ ...

وَاحْتِقَارُ عَرَضِ[١] الْحَيَاةِ الْفَانِي .

حَدَّثَ أَحَدُ أَعْيَانِ مَكَّةَ قَالَ :

دَخَلْتُ بُسْتَاناً مِنْ بَسَاتِينِ المَدِينَةِ ، فَوَجَدْتُ رَجُلاً حَبَشِيًّا يَجْلِسُ إِلَىٰ جِدَارِ الْبُسْتَانِ وَفِي يَدِهِ رَغِيفٌ مِنَ الْخُبْزِ ... وَأَمَامَهُ كَلْبٌ مُقْعٍ[٢] ...

فَكَانَ كُلَّمَا اقْتَطَع مِنَ الرَّغِيفِ لُقْمَةً وَوَضَعَهَا بِفَمِهِ ، اقْتَطَعَ أُخْرَىٰ وَدَفَعَ بِهَا إِلَىٰ الْكَلْبِ ...

(١) عرض الحياة : الزائل الذي لا بقاء له .
(٢) مقع : الإقعاء هو جلسة الكلب علىٰ رجليه الخلفيتين .

فَدَنَوتُ مِنْهُ وَقُلْتُ : أَهَذَا الْكَلْبُ كَلْبُكَ ؟

قَالَ : لَا ...

قُلْتُ : فَلِمَ تُطْعِمُهُ وَمَا مَعَكَ غَيْرُ هَذَا الرَّغِيفِ ؟!

قَالَ : لِأَنَّنَا أُمِرْنَا أَلَّا نَأْكُلَ وَذُو عَيْنٍ يَنْظُرُ ، إِلَّا إِذَا أَطْعَمْنَاهُ مِمَّا نَأْكُلُ .

فَقُلْتُ : أَحُرٌّ أَنْتَ أَمْ عَبْدٌ ؟

فَقَالَ : بَلْ عَبْدٌ لِآلِ فُلَانٍ ...

فَقُلْتُ : وَهَذَا الْبُسْتَانُ ؟ ...

فَقَالَ : إِنَّهُ لَهُمْ ، وَأَنَا أَعْمَلُ فِيهِ .

فَمَضَيْتُ إِلَى سَيِّدِهِ فَشَرَيْتُهُ مِنْهُ ، وَشَرَيْتُ الْبُسْتَانَ أَيْضاً ...

ثُمَّ عُدْتُ إِلَيْهِ ، فَإِذَا هُوَ يَعْمَلُ فِي شَجَرَةٍ ...

فَقُلْتُ لَهُ : لَقَدِ اشْتَرَيْتُكَ مِنْ سَيِّدِكَ ...

وَأَعْتَقْتُكَ لِوَجْهِ اللَّهِ ...

وَاشْتَرَيْتُ مِنْهُ هَذَا الْبُسْتَانَ ...

وَوَهَبْتُهُ لَكَ ؛ ابْتِغَاءَ[1] لِمَرْضَاتِهِ جَلَّ وَعَزَّ .

فَمَا زَادَ عَلَىٰ أَنْ قَالَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْتَقَ رَقَبَتِي ...

وَالشُّكْرُ لَهُ عَلَىٰ أَنْ وَفَّقَكَ لِهَذَا الْخَيْرِ ...

أَمَّا الْبُسْتَانُ ... فَاشْهَدْ أَنَّنِي تَصَدَّقْتُ بِهِ عَلَىٰ فُقَرَاءِ الْمَدِينَةِ .

فَقُلْتُ : عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ حَاجَتِكَ ؟!

---

(١) ابتغاءً : طلباً .

فَقَالَ : هَدَاكَ اللَّهُ ...

لَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ ، أَفَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً ؟

*   *   *

٦ ـ نَقْدُ الذَّاتِ

وَمِنْ بَوَاعِثِ الْبُطُولَةِ أَيْضاً صِدْقُ الْمَرْءِ مَعَ نَفْسِهِ، وَإِخْلَاصُهُ فِي نَقْدِهَا ...

وَقُدْرَتُهُ عَلَىٰ مُوَاجَهَتِهَا بِعُيُوبِهَا، وَمُصَارَحَتِهَا بِهَا ...

وَهِيَ خَصْلَةٌ لَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذَوُو النُّفُوسِ الْكَبِيرَةِ ...

وَلَا يَحْظَىٰ بِهَا إِلَّا أَصْحَابُ الْحُظُوظِ الْعَظِيمَةِ.

ذَلِكَ أَنَّ الصِّدْقَ مَعَ الآخَرِينَ، وَمُوَاجَهَتَهُمْ بِأَخْطَائِهِمْ مُوَاجَهَةً صَادِقَةً خَالِصَةً بَنَّاءَةً أَمْرٌ يَشُقُّ عَلَىٰ النُّفُوسِ ...

فَكَيْفَ بِنَقْدِ الذَّاتِ ؟!!

* * *

وَفِي تَارِيخِنَا نَمَاذِجُ رَائِعَةٌ مِنْ بُطُولَاتِ نَقْدِ الذَّاتِ ...

وَالِاعْتِرَافِ بِالذَّنْبِ الَّذِي لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ ...

حَتَّىٰ لَوْ كَانَ الِاعْتِرَافُ بِهِ يُؤَدِّي إِلَىٰ إِقَامَةِ الحَدِّ الَّذِي تُزْهَقُ مَعَهُ الْحَيَاةُ .

وَمَا قِصَّةُ ذَلِكَ الَّذِي جَاءَ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، يَعْتَرِفُ لَهُ بِأَنَّهُ قَارَفَ جَرِيمَةَ الزِّنَا ...

وَيَطْلُبُ تَطْهِيرَهُ مِنْهَا بِإِقَامَةِ الحَدِّ عَلَيْهِ ، بِبَعِيدَةٍ عَنِ الأَذْهَانِ .

* * *

وَمِنْ قِصَصِ بُطُولَةِ نَقْدِ الذَّاتِ، مَا رَوَتْهُ كُتُبُ التَّرَاجِمِ وَالتَّارِيخِ مِنْ أَنَّ أَمِيرَ «العِرَاقَيْنِ»[1] عُمَرَ بْنَ يَزِيدَ بْنِ هُبَيْرَةَ، دَعَا كُلًّا مِنَ الحَسَنِ البَصْرِيِّ، وَعَامِرِ بْنِ شُرَاحِيلَ المَعْرُوفِ بِالشَّعْبِيِّ[2] وَقَالَ لَهُمَا:

إِنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ يَزِيدَ بْنَ عَبْدِ المَلِكِ قَدِ اسْتَخْلَفَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَأَوْجَبَ طَاعَتَهُ عَلَىٰ النَّاسِ ...

وَقَدْ وَلَّانِي أَمْرَ «الْعِرَاقِ»، ثُمَّ زَادَنِي فَوَلَّانِي «خُرَاسَانَ» ...

وَهُوَ يُرْسِلُ إِلَيَّ كُتُباً يَأْمُرُنِي بِإِنْفَاذِ[3] مَا فِيهَا، مِمَّا لَا أَسْتَرِيحُ لَهُ ...

---

(١) العراقين: الكوفة والبصرة.
(٢) الحسن البصري، وعامر بن شراحيل: انظرهما في كتاب «صور من حياة التابعين» للمؤلف، الناشر دار الأدب الإسلامي، الطبعة المشروعة.
(٣) إنفاذ ما فيها: القضاء بما فيها.

فَهَلْ تَجِدَانِ لِي فِي إِنْفَاذِ أَوَامِرِهِ مَخْرَجاً فِي الدِّينِ ؟

فَأَجَابَ الشَّعْبِيُّ جَوَاباً فِيهِ تَقِيَّةٌ لِلْخَلِيفَةِ ، وَمُسَايَرَةٌ لِلْوَالِي ...

وَالْحَسَنُ سَاكِتٌ ...

فَالْتَفَتَ عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ إِلَى الْحَسَنِ ، وَقَالَ :

وَمَا تَقُولُ أَنْتَ يَا حَسَنُ ؟

فَقَالَ : يَا بْنَ هُبَيْرَةَ خَفِ اللَّهَ فِي يَزِيدَ وَلَا تَخَفْ يَزِيدَ فِي اللَّهِ ...

وَاعْلَم أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ يَمْنَعُكَ[1] مِنْ يَزِيدَ ... وَأَنَّ يَزِيدَ لَا يَمْنَعُكَ مِنَ اللَّهِ ...

يَا بْنَ هُبَيْرَةَ إِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ مَلَكٌ غَلِيظٌ شَدِيدٌ لَا يَعْصِي اللَّهَ مَا أَمَرَهُ ...

(١) يمنعك : يحميك ويحفظك .

فَيُزِيلَكَ عَنْ سَرِيرِكَ هَذَا ...

وَيَنْقُلَكَ مِنْ سَعَةِ قَصْرِكَ إِلَىٰ ضِيقِ قَبْرِكَ ...

حَيْثُ لَا تَجِدُ هُنَاكَ يَزِيدَ، وَإِنَّمَا تَجِدُ عَمَلَكَ الَّذِي خَالَفْتَ فِيهِ رَبَّ يَزِيدَ ...

يَا بْنَ هُبَيْرَةَ إِنَّكَ إِنْ تَكُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَفِي طَاعَتِهِ كَفَاكَ بَائِقَةَ[1] يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ...

وَإِنْ تَكُ مَعَ يَزِيدَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ ...

وَكَلَكَ[2] اللَّهُ إِلَىٰ يَزِيدَ .

وَاعْلَمْ يَا بْنَ هُبَيْرَةَ أَنَّهُ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ كَائِناً مَنْ كَانَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ جَلَّ وَعَزَّ ...

---

(١) كفاك بائقة يزيد : يحميك من أذى يزيد .
(٢) وكلك : سلّمك إليه وتركك له .

فَبَكَىٰ عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ حَتَّىٰ بَلَّلَتْ دُمُوعُهُ لِحْيَتَهُ ...

وَمَالَ عَنِ الشَّعْبِيِّ إِلَىٰ الْحَسَنِ ...

وَبَالَغَ فِي إِعْظَامِهِ وَإِكْرَامِهِ ...

فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ تَوَجَّهَا إِلَىٰ المَسْجِدِ، فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِمَا النَّاسُ ... وَجَعَلُوا يَسْأَلُونَهُمَا عَنْ خَبَرِهِمَا مَعَ أَمِيرِ «الْعِرَاقَيْنِ».

فَالْتَفَتَ الشَّعْبِيُّ إِلَىٰ النَّاسِ وَقَالَ:

أَيُّهَا النَّاسُ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُؤْثِرَ[1] اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ خَلْقِهِ فِي كُلِّ مَقَامٍ فَلْيَفْعَلْ.

فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ... مَا قَالَ الحَسَنُ لِعُمَرَ ابْنِ هُبَيْرَةَ قَوْلاً أَجْهَلُهُ ...

---

(١) يؤثره: يقدمه ويفضله عَلَىٰ كل ما عداه.

وَلَكِنِّي أَرَدْتُ فِيمَا قُلْتُهُ وَجْهَ ابْنِ هُبَيْرَةَ ...

وَأَرَادَ فِيمَا قَالَهُ وَجْهَ اللَّهِ ...

فَأَقْصَانِي اللَّهُ مِنَ ابْنِ هُبَيْرَةَ ...

وَأَدْنَاهُ مِنْهُ وَحَبَّبَهُ إِلَيْهِ .

* * *

٧ ـ تَقْوَىٰ اللَّهِ

وَمِنْ بَوَاعِثِ البُطُولَةِ التَّقْوَىٰ ... فَإِذَا تَمَكَّنَتْ هَذِهِ المَنْقَبَةُ[١] مِنْ قَلْبِ امْرِئٍ ...

أَحْكَمَتْ سُلْطَانَهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ...

وَشَدَّدَتْ قَبْضَتَهُ عَلَىٰ هَوَاهُ ...

وَمَلأَتْ بِالْبُطُولَاتِ أَعْمَالَهُ وَتَصَرُّفَاتِهِ ...

وَمَا أَحْسَنَ مَا قِيلَ فِي ذَلِكَ :

لَيْسَ مَنْ يَقْطَعُ طُرُقاً بَطَلاً

إِنَّمَا مَنْ يَتَّقِي اللَّهَ الْبَطَلْ

* * *

(١) المنقبة : المفخرة والفعل الكريم .

وَنَمَاذِجُ الْبُطُولَةِ الَّتِي بَعَثَتْ عَلَيْهَا التَّقْوَىٰ فِي تَارِيخِنَا كَثِيرَةٌ وَفِيرَةٌ ... لَا يَعْلَمُ المَرْءُ مَاذَا يَأْخُذُ مِنْهَا وَمَاذَا يَدَعُ ، مِنْ ذَلِكَ أَنَّ التَّابِعِيَّ[1] الْجَلِيلَ مُحَمَّدَ ابْنَ سِيرِينَ[2]، كَانَ قَدْ قَسَمَ حَيَاتَهُ أَقْسَاماً ثَلَاثَةً :

فَجَعَلَ قِسْماً لِلْعِلْمِ : يَأْخُذُهُ وَيُعْطِيهِ ...

وَقِسْماً لِلْعِبَادَةِ : يَصْفُو فِيهِ إِلَىٰ رَبِّهِ ...

وَقِسْماً لِلتِّجَارَةِ : يَكْسِبُ فِيهِ الْمَالَ الَّذِي يَسُدُّ بِهِ الْحَاجَاتِ ، وَيَقْضِي بِهِ الْحُقُوقَ وَيَعُودُ بِهِ عَلَىٰ الْمُحْتَاجِينَ .

* * *

(١) التَّابعون : هم الرعيل الأول بعد صَحابة النَّبي ﷺ ، وقد قسمهم علماء الحديث إِلَىٰ طبقات ، أولهم من لحِقَ العشرةَ المبشرين بالجنة وآخرهم من لَقِيَ صغار الصَّحابة أو من تأخرت وفاتهم ... انظر كتاب « صور من حياة التَّابعين » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

(٢) مُحَمَّد بْن سِيرِين : انظره في كتاب « صور من حياة التَّابعين » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

وَفِي ذَاتِ مَرَّةٍ اشْتَرَىٰ زَيْتاً بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ مُؤَجَّلَةٍ[1] ...

فَلَمَّا فَتَحَ أَحَدَ زِقَاقِ[2] الزَّيْتِ وَجَدَ فِيهِ فَأْراً مَيِّتاً مُتَفَسِّخاً .

فَقَالَ فِي نَفْسِهِ :

إِنَّ الزَّيْتَ كُلَّهُ كَانَ فِي المَعْصَرَةِ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ ...

وَإِنَّ النَّجَاسَةَ لَيْسَتْ خَاصَّةً بِهَذَا الزِّقِّ دُونَ سِوَاهُ ...

وَإِنِّي إِنْ رَدَدْتُهُ لِلْبَائِعِ بِالْعَيْبِ[3] فَرُبَّمَا بَاعَهُ لِلنَّاسِ ...

---

(١) مُؤجلة : يدفع ثمنها في المستقبل .
(٢) الزقاق : واحدها زق ، وهو إناء من جلد تحفظ فيه السوائل .
(٣) الرد بالعيب : مسألة معروفة في فقه التجارة ، وهي أن يرد المشتري البضاعة لعيب فيها .

ثُمَّ أَرَاقَهُ كُلَّهُ .

وَقَعَ ذَلِكَ فِي وَقْتٍ كَانَ يَشْكُو فِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ مِنْ خَسَارَةٍ كَبِيرَةٍ حَلَّتْ بِهِ ...

فَرَكِبَهُ الدَّيْنُ ... وَطَالَبَهُ صَاحِبُ الزَّيْتِ بِمَالِهِ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ سَدَادَهُ ...

فَرَفَعَ أَمْرَهُ إِلَىٰ الْوَالِي ، فَأَمَرَ بِحَبْسِهِ حَتَّىٰ يُسَدِّدَ مَا عَلَيْهِ .

فَلَمَّا صَارَ فِي السِّجْنِ وَطَالَ مَكْثُهُ[١] فِيهِ ... أَشْفَقَ عَلَيْهِ السَّجَّانُ ؛ لِمَا عَلِمَ مِنْ أَمْرِ دِيْنِهِ ، وَمَا رَأَىٰ مِنْ شِدَّةِ وَرَعِهِ وَطُولِ عِبَادَتِهِ ...

فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الشَّيْخُ ، إِذَا كَانَ اللَّيْلُ فَاذْهَبْ إِلَىٰ أَهْلِكَ وَبِتْ مَعَهُمْ ...

---

(١) مكثه : بقاؤه .

فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَعُدْ إِلَيَّ ، وَاسْتَمِرَّ عَلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ يُطْلَقَ سَرَاحُكَ .

فَقَالَ لَهُ : لَا ، وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ ...

فَقَالَ السَّجَّانُ : وَلِمَ ، هَدَاكَ اللَّهُ ؟!

فَقَالَ لَهُ : حَتَّىٰ لَا أُعَاوِنَكَ عَلَىٰ خِيَانَةِ السُّلْطَانِ .

* * *

وَلَمَّا احْتُضِرَ[1] أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ[2] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَوْصَىٰ بِأَنْ يَغْسِلَهُ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ وَيُصَلِّيَ عَلَيْهِ ، وَكَانَ مَا يَزَالُ سَجِيناً .

فَلَمَّا تُوُفِّيَ ، جَاءَ النَّاسُ إِلَىٰ الْوَالِي ... وَأَخْبَرُوهُ

---

(١) احْتُضِرَ : حضره الموت ، أي صار في آخر لحظات عُمره .
(٢) أَنَس بن مَالِك : انظره في كتاب « صور من حياة الصَّحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

بِوَصِيَّةِ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَخَادِمِهِ ...

وَاسْتَأْذَنُوهُ فِي أَنْ يُخَلِّيَ سَبِيلَ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ لِإِنْفَاذِ الْوَصِيَّةِ ... فَأَذِنَ لَهُ .

فَقَالَ لَهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ :

لَا أَخْرُجُ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا صَاحِبَ الدَّيْنِ ؛ فَإِنَّمَا حُبِسْتُ بِمَا لَهُ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ ...

فَأَذِنَ لَهُ الدَّائِنُ أَيْضاً ...

عِنْدَ ذَلِكَ خَرَجَ مِنْ سِجْنِهِ فَغَسَلَ أَنَساً وَكَفَّنَهُ ، وَصَلَّىٰ عَلَيْهِ ...

ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ السِّجْنِ كَمَا هُوَ ...

وَلَمْ يَذْهَبْ لِرُؤْيَةِ أَهْلِهِ .

* * *

٨ ـ الرُّضُوخُ لِلْحَقِّ وَالإِذْعَانُ لَهُ

وَمِنْ بَوَاعِثِ الْبُطُولَةِ الانْصِيَاعُ لِلشَّرْعِ، وَالرُّضُوخُ لِأَحْكَامِهِ...

مَهْمَا كَانَتْ قَاسِيَةً عَلَىٰ النَّفْسِ...

وَتَقْدِيسُ الْحَقِّ وَالرَّغْبَةُ فِي الْوُصُولِ إِلَيْهِ...

وَالصِّدْقُ وَالإِخْلَاصُ فِي تَنْفِيذِهِ مَهْمَا كَانَ ثَقِيلَ التَّبِعَاتِ...

* * *

وَفِي تَارِيخِنَا الْإِسْلَامِيِّ مِنَ الْبُطُولَاتِ الَّتِي انْبَعَثَتْ عَنْ هَذَا الْبَاعِثِ مَا يَعُزُّ...

مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الرَّبِيعُ حَاجِبُ الْمَنْصُورِ ...

قَالَ : مَا رَأَيْتُ رَجُلاً أَحْضَرَ جَنَاناً ، وَلَا أَرْبَطَ جَأْشاً مِنْ رَجُلٍ سُعِيَ[1] بِهِ إِلَىٰ المَنْصُورِ ... أَنَّ عِنْدَهُ وَدَائِعَ وَأَمْوَالاً لِبَنِي أُمَيَّةَ ، فَأَمَرَنِي بِإِحْضَارِهِ ... فَأَحْضَرْتُهُ وَدَخَلْتُ بِهِ عَلَيْهِ .

فَقَالَ لَهُ المَنْصُورُ :

قَدْ رُفِعَ إِلَيْنَا خَبَرُ الْوَدَائِعِ وَالْأَمْوَالِ الَّتِي عِنْدَكَ لِبَنِي أُمَيَّةَ فَأَخْرِجْهَا لَنَا ...

فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَوَارِثٌ أَنْتَ لِبَنِي أُمَيَّةَ ؟ ...

قَالَ : لَا ...

قَالَ : أَفَأَنْتَ لَهُمْ وَصِيٌّ ؟ ...

(١) سُعي به : وشي به ونقل عنه إحدىٰ التهم .

قَالَ المَنْصُور: لَا ...

فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: إِذاً فَمَا سَبَبُ سُؤَالِكَ عَمَّا فِي يَدَيَّ مِنْ ذَلِكَ ؟!

فَأَطْرَقَ[1] المَنْصُورُ سَاعَةً ...

ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ لِلرَّجُلِ:

إِنَّ بَنِي أُمَيَّةَ ظَلَمُوا الْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الْأَمْوَالِ ... وَأَنَا وَكِيلُهُمْ فِي حَقِّهِمْ ...

فَأُرِيدُ أَنْ آخُذَ هَذِهِ الْوَدَائِعَ ؛ وَأَرُدَّهَا إِلَىٰ بَيْتِ الْمَالِ .

فَقَالَ الرَّجُلُ:

يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ يَلْزَمُ فِي ذَلِكَ إِقَامَةُ البَيِّنَةِ الْعَادِلَةِ عَلَىٰ أَنَّ الَّذِي فِي يَدِي هُوَ لِبَنِي أُمَيَّةَ ...

---

(١) أطرق: نظر إلى الأرض ولم يتكلم.

وَأَنَّهُمْ قَدْ خَانُوا النَّاسَ فِيهِ ...

وَاغْتَصَبُوهُ ظُلْماً مِنْ أَمْوَالِ المُسْلِمِينَ ...

فَإِنَّ بَنِي أُمَيَّةَ كَانَ لَهُمْ أَمْوَالٌ غَيْرُ أَمْوَالِ المُسْلِمِينَ .

قَالَ الرَّبِيعُ : فَعَادَ المَنْصُورُ وَأَطْرَقَ سَاعَةً إِلَىٰ الْأَرْضِ ... ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ ...

وَقَالَ لِي :

يَا رَبِيعُ ؛ مَا وَجَبَ[1] لَنَا عَلَىٰ الرَّجُلِ شَيْءٌ .

ثُمَّ إِنَّ المَنْصُورَ الْتَفَتَ إِلَىٰ الرَّجُلِ مُبْتَسِماً وَقَالَ لَهُ :

هَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ فَأَقْضِيَهَا لَكَ ؟ .

فَقَالَ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ...

---

(١) وجب : ثبت ، أو لزم .

حَاجَتِي أَنْ تَبْعَثَ بِرِسَالَةٍ مِنِّي إِلَىٰ أَهْلِي فِي الشَّامِ مَعَ البَرِيدِ لِيَسْكُنُوا إِلَىٰ سَلَامَتِي ...

فَقَدْ رَاعَهُمْ إِشْخَاصِي[1] مِنْ عِنْدِهِمْ ...

ثُمَّ أَسْأَلُكَ حَاجَةً أُخْرَىٰ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ...

فَقَالَ لَهُ : وَمَا هِيَ ؟ ...

فَقَالَ : أُرِيدُ مِنْ كَرَمِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنِي وَبَيْنَ مَنْ سَعَىٰ بِي إِلَيْهِ ...

فَوَاللَّهِ ، مَا عِنْدِي لِبَنِي أُمَيَّةَ شَيْءٌ ، وَلَا فِي يَدِي مَالٌ وَلَا وَدِيعَةٌ لَهُمْ ...

وَلَا فِي مَعْرِفَتِي أَنَّ لَهُمْ عِنْدَ أَحَدٍ شَيْئًا ...

وَلَكِنِّي لَمَّا مَثَلْتُ بَيْنَ يَدَيْكَ وَسَأَلْتَنِي ...

رَأَيْتُ أَنَّ مَا قُلْتُهُ أَقْرَبُ إِلَىٰ الْخَلَاصِ عِنْدَكَ .

(١) إشخاصي : إخراجي .

قَالَ الرَّبِيعُ : فَالْتَفَتَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ إِلَيَّ ...

وَقَالَ لِي : يَا رَبِيعُ ، اجْمَعْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ سَعَىٰ بِهِ ...

فَأَحْضَرْتُ الرَّجُلَ الَّذِي سَعَىٰ بِهِ ، فَحِينَ رَآهُ ، قَالَ :

هَذَا غُلَامِي[1] سَطَا عَلَىٰ ثَلَاثَةِ آلَافِ دِينَارٍ مِنْ مَالِي ... وَأَبَقَ[2] بِهَا مِنِّي ...

فَلَمَّا سَمِعَ المَنْصُورُ ذَلِكَ هَدَّدَ الغُلَامَ وَشَدَّدَ عَلَيْهِ ...

فَأَقَرَّ بِصِدْقِ كَلَامِ الرَّجُلِ وَاعْتَرَفَ بِأَنَّهُ غُلَامُهُ ...

وَأَنَّهُ أَخَذَ الْمَالَ الَّذِي ذَكَرَهُ مَوْلَاهُ وَأَبَقَ بِهِ ...

---

(١) غلامي : عَبْدي الرقيق .
(٢) أبق : هرب .

وَأَنَّهُ إِنَّمَا سَعَىٰ بِمَوْلَاهُ لَعَلَّهُ يُقْتَلُ ... وَيَسْلَمُ هُوَ مِنَ الْوُقُوعِ بِيَدِهِ.

فَالْتَفَتَ الْمَنْصُورُ إِلَىٰ الرَّجُلِ ...

وَقَالَ : نَسْأَلُكَ الصَّفْحَ عَنْهُ .

فَقَالَ الرَّجُلُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، صَفَحْتُ عَنْ جُرْمِهِ وَأَبْرَأْتُ ذِمَّتَهُ مِنْ الْمَالِ ... وَأَعْطَيْتُهُ ثَلَاثَةَ آلَافِ دِينَارٍ أُخْرَىٰ .

فَقَالَ الْمَنْصُورُ : مَا عَلَىٰ مَا فَعَلْتَ مِنَ الْكَرَمِ مِنْ مَزِيدٍ .

فَقَالَ : بَلْ اسْتِمَاعُكَ إِلَيَّ ...

وَانْصِيَاعُكَ إِلَىٰ الْحَقِّ ...

أَجَلُّ وَأَكْرَمُ ...

ثُمَّ اسْتَأْذَنَ وَانْصَرَفَ .

*   *   *

خَاتِـمَة

وَأَخِيراً فَهُنَاكَ بُطُولَاتٌ كَثِيرَةٌ لَا يَنْفَرِدُ فِي إِبْدَاعِهَا بَاعِثٌ وَاحِدٌ...

وَإِنَّمَا تَأْتَلِفُ فِي صِنَاعَتِهَا خِلَالٌ[1] شَتَّىٰ...

وَخَصَائِلُ مُتَعَدِّدَةٌ.

مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ «الصُّولِيُّ» عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ جَعْفَرَ بْنِ سُلَيْمَانَ قَالَ:

غَزَوْتُ مَعَ الْمُعْتَصِمِ «عَمُّورِيَّةَ»[2]...

فَاحْتَاجَ الْجُنْدُ إِلَىٰ الْمَاءِ... فَمَدَّ لَهُمُ الْمُعْتَصِمُ

(١) خِلَال: خصال وصفات.
(٢) انظر يوم عَمُّورِيَّة في كتاب «حدث في رمضان» للمؤلف.

حِيَاضاً مِنْ أَدَمٍ[١] طُولُهَا عَشْرَةُ أَمْيَالٍ ، وَسَاقَ فِيهَا الْمَاءَ إِلَىٰ سُورِ « عَمُّورِيَّةَ » .

وَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الرُّومِ يَقُومُ كُلَّ يَوْمٍ عَلَىٰ سُورِ « عَمُّورِيَّةَ » ، وَيَشْتُمُ النَّبِيَّ ﷺ بِالْعَرَبِيَّةِ بِاسْمِهِ وَنَسَبِهِ .

فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَمْ يَكُنْ يَصِلُ إِلَيْهِ النُّشَّابُ[٢] ...

قَالَ يَعْقُوبُ :

وَكُنْتُ أَرْمِي رَمْياً جَيِّداً ... فَاعْتَمَدْتُهُ بِنُشَّابَةٍ ، فَأَصَبْتُ نَحْرَهُ[٣] فَهَوَىٰ ، وَكَبَّرَ الْمُسْلِمُونَ ...

وَسُرَّ الْمُعْتَصِمُ وَقَالَ :

---

(١) الأدم : الجلد المدبوغ .
(٢) النُّشَّاب : السهم .
(٣) النحر : نقرة في العنق أعلىٰ الصدر .

عَلَيَّ بِالَّذِي رَمَاهُ .

فَأُدْخِلْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ : مَنْ أَنْتَ ؟ ...

فَانْتَسَبْتُ لَهُ ...

فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ ثَوَابَ هَذَا السَّهْمِ لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي [يَعْنِي بَنِي الْعَبَّاسِ] ...

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ ... وَقَالَ :

بِعْنِي ثَوَابَكَ مِنْ هَذَا السَّهْمِ ؛ وَأَنَا أُعْطِيكَ بِهِ عِشْرِينَ أَلْفاً .

فَقُلْتُ : مَا أَبِيعُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

وَلَيْسَ الثَّوَابُ مِمَّا يُبَاعُ .

فَقَالَ : أَنَا أَزِيدُكَ وَأُعْطِيكَ خَمْسِينَ أَلْفاً ...

فَقُلْتُ : مَا أَبِيعُ ثَوَابِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَمَازَالَ يُرَغِّبُنِي[١] حَتَّىٰ أَعْطَانِي مِائَةَ أَلْفٍ ...

فَقُلْتُ : لَا أَبِيعُ ثَوَابِي بِالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ...

وَلَكِنْ قَدْ وَهَبْتُكَ نِصْفَ ثَوَابِ هَذَا السَّهْمِ ... وَاللَّهُ يَشْهَدُ عَلَيَّ بِذَلِكَ .

فَقَالَ : جَزَاكَ اللَّهُ خَيْراً ... قَدْ رَضِيتُ .

ثُمَّ قَالَ : أَيْنَ تَعَلَّمْتَ الرَّمْيَ ؟

فَقُلْتُ : فِي دَارِي فِي البَصْرَةِ .

فَقَالَ : بِعْنِيهَا ...

فَقُلْتُ : هَيْهَاتَ[٢] ...

لَقَدْ وَقَفْتُهَا عَلَىٰ مَنْ يَبْتَغِي تَعَلُّمَ الرَّمْيِ .

فَقَالَ : وَمَنْ يُعَلِّمُهُمْ ؟ .

---

(١) يُرَغِّبُنِي : يحبب إليَّ الأمر ويغريني به .
(٢) هيهات : اسم فعل بمعنىٰ بعد [أي أن قبول ذلك بعيد] .

فَقُلْتُ : أَنَا أُعَلِّمُهُمْ ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

* * *

وَبَعْدُ ...

فَلَيْسَتِ الْبُطُولَةُ وَالْبُطُولَاتُ تَرَفاً فِي حَيَاةِ الْأُمَمِ ...

وَلَا قِصَصاً تُرْوَىٰ لِلتَّسْلِيَةِ وَتَزْجِيَةِ الْفَرَاغِ ...

وَإِنَّمَا هِيَ حَاجَاتٌ ضَرُورِيَّةٌ أَسَاسِيَّةٌ ...

لَا تَكْتَمِلُ حَيَاةُ الشُّعُوبِ إِلَّا بِهَا ...

وَلَا تُبْتَنَىٰ الْمُجْتَمَعَاتُ الْفَاضِلَةُ الْقَوِيَّةُ إِلَّا عَلَىٰ أَسَاسِهَا .

فَبِالْبُطُولَاتِ تَتَجَسَّدُ قِيَمُ الْأُمَّةِ وَمُثُلُهَا ...

وَتَبْرُزُ خَصَائِصُهَا وَمُقَوِّمَاتُهَا ...

وَتَقْوَىٰ ثِقَتُهَا بِنَفْسِهَا ...

وَبِالْأَبْطَالِ تَتَحَقَّقُ لِأَبْنَاءِ الْأُمَّةِ الْقُدْوَةُ وَالْأُسْوَةُ ...

وَتَتَحَوَّلُ الْخِلَالُ وَالْخِصَالُ إِلَىٰ كَائِنَاتٍ حَيَّةٍ تَمْشِي عَلَىٰ الْأَرْضِ ...

وَالْأَبْطَالُ - مُنْذُ كَانُوا - مَشَاعِلُ تُضِيءُ لِلنَّاشِئَةِ دُرُوبَ الْمَجْدِ وَالسُّؤْدَدِ وَالْخَيْرِ وَالْبِرِّ ...

وَمَنَارَاتٌ تَشُدُّ أَعْيُنَهُمْ نَحْوَ الذُّرَىٰ وَالْقِمَمِ .

وَلَوْ سُئِلْتُ عَنِ الْبَاعِثِ الْأَوَّلِ وَالْأَوْحَدِ لِلْبُطُولَةِ ...

لَقُلْت - مِنْ غَيْرِ تَرَدُّدٍ - « الْإِيمَانُ » .

* * *

المراجع

- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني .
- أعلام النبلاء للذهبي .
- وفيات الأعيان لابن خلكان .
- البطولة والأبطال للدكتور أحمد محمد الحوفي .
- تاريخ ابن عساكر .
- تاريخ الإسلام للذهبي .
- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي .
- تاريخ خليفة بن خياط .
- دائرة المعارف الإسلامية .

- الزهد للإمام أحمد بن حنبل .

- من أبطالنا الذين صنعوا التاريخ لأبي الفتوح التوانسي .

- الموسوعة العربية الميسرة .

*   *   *

الفِهْرِس

* * *

كتب للمؤلف

• نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد .

هذا الكتاب سلاح لمقاومة ما نتعرض له من غزو فكري ووجداني وحضاري ...

ودرع واقٍ يقف في وجه التيار الجارف للمذاهب الأدبية المنبثقة عن نظرة أصحابها إلى الإنسان وما حوله ...

لقد عرض المؤلف - رحمه الله - أهم المذاهب الأدبية وموقف الإسلام منها ، وموقف الإسلام من الأدب عامة ومن الشعر خاصة ، والخصائص العامة لهذا المذهب الأدبي الذي نسعىٰ له . بتحليله العلمي الدقيق ، ومعلوماته الموسوعية الشاملة النابعة من الكتاب والسنة ، وبأسلوبه الأدبي المميز .

وقد خلص المؤلف - رحمه الله - إلىٰ رسم منهج لمذهب إسلامي في الأدب والنقد يُيَسِّر لنا وضع المعايير والمقاييس ؛ لمعرفة الغث من الطيب .

• صور من حياة التابعين .

يعرض صوراً واقعية مشرقة من حياة مجموعة من أعلام التابعين الذين عاشوا قريباً من عصر النبوة وفي كنف صحابة رسول الله ﷺ ، فإذا هم صورة لصحابة رسول الله ﷺ في رُسُوخ الإيمان ، والتعالي عن عرض الدنيا ، والتفاني في مرضاة الله ...

وقد كانوا قاعدةً للدعوة إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ تضرب في فجاج الأرض مُشرِقَةً مُغَرِبَةً تحمل للبشرية العقيدة البانية ، وتمد إليها اليد المُصلحة الحانية ، وتنشر في رُبُوعها الشرعة الحقة .

وقد قسَّمهم علماء الحديث إلىٰ طبقات : أولهم من لحق العشرة المبشرين بالجنة ، وآخرهم من لقي صغار الصحابة ؛ أو من تأخرت وفاتهم .

• حدث في رمضان .

في شهر رمضان سعد هذا الكوكب الأرضي بأعظم حادث وقع علىٰ ظهره ؛ فكان هذا الحادث فرقاناً في تاريخ البشرية كلها ، وإيذاناً بمولد عالم جديد ...

وشهد فيه العالم الإسلامي أياماً متنوعةً ... منها الحزينة التي لا تذهب الأيام بمرارتها ...

وأياماً أعز الله فيها المسلمين من هوان ، وقواهم من ضعف ، وأعلىٰ في هذا الشهر الكريم رايات الإسلام ، ورفع في أيامه أعلام القرآن ... فحبذا رمضان ، وحبذا أيامه الغر الميامين .

• صور من حياة الصحابة .

يعرض صوراً من حياة مجموعة من نجوم الهداية التي نشأت في أحضان المدرسة المحمدية ؛ بأسلوب جمع بين البلاغة الأدبية ، والحقيقة التاريخية ...

فيجد طالب الأسلوب الإنشائي في هذا الكتاب بغيته ، وناشد الفن القصصي طُلْبَتَهُ ، والساعي إلىٰ التأسّي بالكرام ما يرضيه ويغنيه ، والباحث عن الحقيقة التاريخية ما يفي بغرضه .

• الدين القيم .

أثار قضية من أهم القضايا المؤثرة في حياة البشرية ألا وهي المنهاج الذي يرسم الطريق لجوانب حياتها ، ويوائم متطلبات جسدها ونوازع روحها ... وأن الإنسان بأهوائه وعلمه وعقله عاجز كل العجز عَلَىٰ أن يضع هذا المنهاج الشامل الذي يصلح للبشرية كلها في سائر أجيالها ...

وقد حسم المؤلف ـ رحمه اللّٰه ـ هذه القضية بأن هذا المنهاج هو الدين بمنطق لا يحتمل الجدل .

وقد تطرق هذا الكتاب إِلَىٰ أهم العلاقات الإنسانية المؤثرة في أي مجتمع كان ، والتي نظمها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ...

وبَيَّنَ الفارق العظيم بين مدنية الإسلام التي فاضت بالخير والبر حتىٰ بلغت ترفاً وبَيَّنَ مبادئ الحضارة الغربية التي لا ينعم بها الملونون الغربيون أنفسهم ...

• صور من حياة الصحابيات .

هذا الكتاب يجوب بنا في رحاب حياة المرأة المسلمة التي عاشت في كنف الرّسول الكريم ﷺ من خلال صور متعددة تعبر عن المنهج الإسلامي القويم الذي وضع الأسس لحقوق المرأة وواجباتها ...

فَتَحُثَ ﷺ بايعت عَلَىٰ ما بايع عليه الرجال ، ورسمت أسمىٰ معاني البذل والعطاء وهي مهاجرة إلىٰ ديار الغربة مخلفة وراءها بيتها الباذخ ؛ وعزها الشامخ محتسبة ذلك كله في اللّٰه وابتغاء مرضاته .

ولم تقتصر خصائل المرأة المسلمة عَلَىٰ أنها مؤمنة راسخة الإيمان ، وزوجاً وأُمًّا من الطراز الأول ، ربت فأحكمت وأصيبت فاحتسبت ... بل كانت فوق ذلك كله مجاهدة في سبيل اللّٰه فخاضت المعارك وضمدت الجراح ، وحملت الزاد وأصلحت السهام ، وسكبت الماء في حلوق العطاش وهم يجودون بنفوسهم في سبيل اللّٰه ...

إنها حياة المرأة المسلمة بكل ما فيها من سمو وفخار .

● أرض البطولات .

قصة من قصص كفاح أمتنا كتبها شعبنا المؤمن بشفرات السيوف ، وحبَّرها بزكي الدماء ضد المستعمر الفرنسي ...

ليس فيها من خيال القاص إلا ما يربط بين الوقائع ، ولا من خلق الكاتب إلّا ما تستدعيه طبيعة العمل القصصي لتصوير الأحداث ...

فزمنها هو ربع القرن الذي أعقب الحرب العالمية الأولىٰ ، ومكانها هو تلك الربوع الشامية ، وأشخاصها مواطنون معروفون .

وقد كُتِبَتْ هذه القصة بلغةٍ فصحىٰ ليكون في ذلك بلاغ لأولئك الذين يشيعون بين الناس أن هذا الفن من القول لا يسلس إلّا للعامية ، ولا يُؤَدَّىٰ إلّا بها .